عصرنا الذهبي الرابع[1]

سيدي الرئيس:

إن العصور الذهبية العربية التي تقدم فيها العلم وازدهر الأدب وارتقت الحضارة وتطورت الحياة، ثلاثة:

عصر الرشيد وابنه المأمون في بغداد، وعصر العزيز وابنه الحاكم في القاهرة، وعصر الناصر وابنه الحكم في قرطبة. وهذه الأعصر الثلاثة كانت مراحل للتقدم البشري في طريق الكمال الممكن، إلا أنها كانت تتسم بسمات الارستقراطية، فلا يكاد خيرها يجاوز النطاق الخاص؛ فقاعات العروش، وأبهاء القصور، ودواوين الحكم، كانت تفيض بالثراء والنعمة، وتزخر برجال العلم والأدب والحكمة.

أما الشعوب فكانت قطعانا تستغل، وموارد تستنزف، وطبقا يعلو بعضها بعضاً بحكم النسب أو السلطان أو الثروة، فما كان ينالهم من فضل العصر إلا القدر المحتوم من الرخاء العام والخير المشترك، حتى أراد الله أن يكون للعرب عصر ذهبي رابع يكمل نقص هذه الأعصر جميعاً، فكان عصرك يا سيدي الرئيس ! عصرك الذي أشرق إشراق الشمس وأقبل إقبال الربيع؛ فيه الحرارة والنور، وفيه النضارة والخصب. عصرك الذي طبقت فيه مبادئ الإسلام التي فهمت ولم تعتقد، أو اعتقدت ولم تطبق، فالأمر شورى، والحكم عدل، والرزق شركة، والناس سواسية، والشعب حاكم.

عصرك يا سيدي الرئيس قد انفرد من بين العصور بأنه عصر الإنسان الكريم، والمواطن الحر، والعامل الكادح، والعالم المجتهد، والأديب المستقل. فكل منهم يشعر اليوم بأن له حقاً يناله، وواجباً يؤديه، ورزقاً يكفيه، ووطناً يعتز به.

عصرك عصر السلام والوئام والوحدة، فأنت تسعى دائباً للسلام الدائم بين الدول، وللوئام الكامل بين الشعوب، وللوحدة الشاملة بين العرب، لا تبتغي من وراء أولئك كله إلا ما ابتغاه ذوو الرسالات من قبلك.

---

(1) نص الكلمة التي ألقيت في عيد العلم نيابة عن الفائزين بجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية سنة 1962.

وسينتشر ضوء ميثاقك المحكم الهادي في كل نفس، وفي كل أرض انتشار كلمة الله لأنه الحق الذي وضعه الله في شرعه، والمنهج الذي سنه لجميع خلقه.

سيدي الرئيس:

إن الأدب الذي تكرمه الليلة في أهله قد بشرك ومهد لك ودعا إليك ففي أغسطس من عام 1925 قالت مجلة الرسالة:

" نحن في مجموع الناس أوزاع وأتباع ننظر إلى الأمم تعمل وإلى العالم يسير بعين بلهاء لا يجاوز بصرها مدى العجب، وعلتنا أن ساستنا وقادتنا كلهم من رجال القول لا من رجال الفعل، ومن أرباب القلم لا من أرباب السيف، ومن جنود القانون لا من جنود (الأوامر). ثقفوا على مباحث الكتب. ودربوا على مكاتب الدواوين، وحرموا التربية العسكرية وهي وحدها القائمة على الخطة والنظام والأمر والتنفيذ والتضحية والشرف ".

وفي إبريل من سنة 1940 تنبأت الرسالة بالرجل المنتظر فقالت ما نصه: " إن للرجل الذي تنتظره الأمة العربية آيات تمهد له وتدل عليه. فمن الآيات المهيأة لظهوره انحلال الأخلاق فلا تتماسك في قول ولا فعل، وتقاطع القلوب فلا تتواصل في وطن ولا دين، واستئثار النفوس فلا تتعفف في صداقة ولا نسب، وجموع الشهوات فلا تنقدع بلين ولا شدة.

ومن آياته المنبئة بوجوده أن يكون لغيره لا لنفسه، ولأمته قبل أسرته، ولإنسانيته بعد وطنيته. ومصداق تلك الآيات أن تموت (الأنا) في لسانه وتحيى في ضميره. ويتحد في ذهنه ذاته بوجود شعبه، فهو يحس ألمه لأنه مجتمع شعوره، ويدرك نقصه لأنه مجتلى عقله، ويملك قيادته لأنه مظهر إرادته. وهو في سمو نفسه ونزاهة هواه قد ارتفع عن أوزار الناس وأقذار الأرض، فلا يطمع لأن غرضه أبعد من الدنيا، ولا يحقد لأن همه أرفع من العداوة، ولا يحابي لأن فضله أرفع من العصبية، ولا يقول قولا ولا يعمل عملا إلا إذا وافق الدين الذي يعتقده والمبدأ الذي يؤيده والشعب الذي يقوده. ثم هو في ألمعية ذهنه ورصانة لبه وصلابة عوده وبعد همته يعظم على الأحداث ويعلو على

الحوائل، فلا ينضج رأياً إلا أمضاه، ولا يرمي غرضاً إلا أصابه، ولا يروم أمداً إلا أدركه".

ثم ختمت الرسالة مقالها بهذا الدعاء.

" رباه: لقد امتد بنا التيه في مجال الأرض إلى قرون. وفسد في نفوسنا الإيمان بالحياة حتى تحول إلى ظنون. فمتى نخرج من التيه يا رباه خروج موسى، ونتبوأ من صدر الحياة العاملة مكان محمد؟ اللهم إنا نسألك الراعي الذي يطرد الذئب، والخيط الذي يجمع الحب، والدليل الذي يحمل المصباح، والقائد الذي يرفع العلم، والأستاذ الذي يعلمنا أن نصنع الإبرة والمدفع، وتشق المنجم والحقل، ونوفق بين الدين والدنيا، ونوحد بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة. وكل أولئك يا رباه يجمعهم رجل واحد هو أبه الناس بالمهدي المنتظر والمسيح الموعود ".

ذلك يا سيدي الرئيس ما تنبأت به الرسالة قبل قيام ثورتك المباركة باثنتي عشرة سنة. وقد صدقت النبوءة واستجيب الدعاء فهل كانت تنظر إليك بلحظ الغيب؟.

سيدي الرئيس:

إذا تفضلت الليلة على رجال العلم والفن والأدب بالتقدير والتشجيع فإنك تقدر سلاحًا من أمضى أسلحتك، وتشجع جنودًا من أخلص جنودك. وإني أتقدم بأسمائهم جميعًا وباسمي إلى سيادتك بأصدق الشكر وأعمقه، ونسأل الله أن يديم عصرك، ويعز نصرك، ويتم عليك وعلى أصحابك نعمة التوفيق.